أ. عبدا لمجيد عباس
باحث و مفكر اسلامي_ سوريا

نظرةٌ في منهجيّة العمل التقريبي

إنّ الواقع المتردّي الذي تعيشُهُ الأمّةُ الإسلاميّةُ بات من الخطورة بما لا يُمكن معهُ إغفال تداعياته؛ من هنا كانت المسألة التي تفرضُ نفسها في بيئة اليوم هي تأصيل منهجٍ ناضجٍ ومنظومة آليّات ناجعةٍ لعلاج هذا الواقع؛ في سياق المنهج الإسلامي الرشيد، الذي يعتمد الحكمة في الطرح والوعي في الخطاب.

ومن خلال كلّ ما عشناهُ من تجارب ومواقف وشجون في مسير الرسالة الوحدويّة، وما لمسناهُ من مسؤوليّات التقريب والحوار؛ كان لا بُدّ من طرحٍ مُتكاملٍ يُؤسس لمشاريع تقريبيّة فاعلة في واقع الشارع المسلم، تماماً كما هي الحاجة إلى تأصيلها في محافل العلماء الوحدويين الذين يعيشون الهمّ الحضاري لهذه الأمة الخاتمة.

حيثُ ترتكزُ معالم الطرح الأوليّ في محاور ثلاثة:

- المحور الأوّل:

دراسةٌ وافيةٌ لواقع الأمّة الإسلاميّة من حيث تنوّع أطيافها، والغنى الفكري الذي تعيشُهُ في مشاربها المعرفيّة؛ والذي سعت جهاتٌ عدّة لتحويله إلى مورد خلافٍ وانقسام.

- المحور الثاني:

بناء منظومة آليّات ناضجة لعلاج هذا الواقع بأكثر من آليّة وعلى أكثر من صعيد؛ إن على صعيد الخطاب العلمائي المعتدل والوسطي، أو في واقع الشارع المسلم الذي يعيش الانقسام في غير جانب.

- المحور الثالث:

الإلمام الدقيق بكافّة التحديات والعقبات التي قد تعترض مسير الجهد الرسالي التقريبي، والتخطيط المتكامل لتذليل هذه العقبات؛ في سبيل الوصول إلى نتائج عمليّة تتلاءم وتعقيدات الواقع الإسلامي الراهن.

١- الواقع الراهن للمجتمع المسلم:

بدايةً ينبغي أن نفرّق هنا بين القيمة التي حاول الدين الإسلامي _كنظام اجتماعي_ ترسيخها في المجتمع، وبين الحالة التي يرزح تحتها المجتمع المسلم؛ وبعبارةٍ أخرى أن لا نخلط بين عظمة النظريّة والفشل في تطبيقها، فالمجتمع المسلم بات يعيشُ إحدى أكثر المراحل ظلاماً في مسيرته الحضاريّة؛ إذ لا يخفى على أحدٍ ذلك الانقسام والتمزّق الذي تعيشهُ طوائف هذا المجتمع مما أودى به إلى مهاوي التكفير والعنف وسفك الدماء.

ويذكرنا هذا الحال بقول أمير الكلام علي (عليه السلام)مخاطبا قومه المشابهين لقومنا اليوم: (فَيَا عَجَباً عَجَباً وَ اللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَ يَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَ تَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ فَقُبْحاً لَكُمْ وَ تَرَحاً حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَ لَا تُغِيرُونَ وَ تُغْزَوْنَ وَ لَا تَغْزُونَ وَ يُعْصَى اللَّهُ وَ تَرْضَوْنَ) [1]. وما أشبه اليوم بالبارحة_ حيثُ انقلب المجتمعُ مزقاً ودويلات، وسكر أبناؤهُ بخمرة الفوارق والخصوصيات؛ فأقعدتهم حالة الفرقة والخلاف هذه، وأوقع بينهم الشيطان الأكبر والأصغر العداوة والبغضاء، وأثار الفتن والنعرات المذهبية وجعل بأسهم بينهم.

من ههنا حوّل البعضُ الاختلاف والتنوع الفكري والثقافي الذي يمنح الإسلام طاقة تطويرية خلاّقة، قادرة على مواكبة مستحدثات الأمور ومستجداتها في كلّ زمان ومكان عبر الأجيال والحضارات المتعاقبة، خصوصاً إذا علمنا أنّ الأيام حبلى بلون كلّ عجيبة.. حولوا ذلك إلى خلاف عقيم مميت لدينهم ودنياهم متناسين نبيهم (ص) حين قال بأنّ "اختلاف أمتي رحمة".

من هنا ننظرُ إلى حالة الخلاف الإسلامي الراهنة، ومن فهمنا لمدى التأزّم ينبغي أن نرسم أولى ملامح الحل المنشود.

٢- آليات التقريب، وثماره:

في إطار المشهد الإسلاميّ ككُل؛ لا نستطيعُ أن ننفي كلّ موارد الخلاف ـ فهذا من طبيعة البشر ـ إنما نستطيع أن لا نجعل من الخلاف عقدةً تسقط المجتمع.

وربما كنّا قد تجاوزنا المرحلة التي نتحدّثُ فيها عن أهميّة التقريب (أو الوحدة مع لحاظ الفارق بين المصطلحين طبعاً)، حيث أصبحت هذه الأهميّة من بديهيّات الفكر المسلم في هذه الأيام؛ بيدَ أننا نحتاجُ للحديث في آليات العمل الوحدوي ولمّ الشمل في مجتمعنا الإسلامي الممزق.

في الإطار العام نجدُ أنّ المولى الكريم قد جعل للمسلمين منهجاً بيّناً ومحوراً جامعاً يستندُ إليه الجميع في مشروع توحيد الصّف، وهو قوله في القرآن الكريم: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[٢]، ثم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٣]، ولذا فإنّ النزاع واستحكامه إذا كان وارداً وحاصلاً بين غير المسلمين، فلا مبرر له بينهم، و«لله على الناس الحجة البالغة».

وإذا كان المولى سبحانه قد شخّص داء هذه الأمة الإسلامية وألمح إلى سرّ ضعفها أمام التحديات الكبرى التي جعلت دماء المسلمين تسيل أودية في معظم أصقاعهم، فباتت تداس مقدساتهم ظلماً وعدواناً في بلادهم استخفافاً واستهانة بهم، وحين أشار إلى أن سبب ذلك كله هو التنازع والفرقة؛ فهو سُبحانه قد وصف الدواء الشافي المتمثل بالوحدة الإسلامية العالمية (وبالأخصّ في القضايا الحضاريّة والمصيريّة الكبرى).

وقد أبان جلّ وعلا في قرآنه العظيم بأنّ ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[٤]، ثم أردف تعالى في موردٍ آخر ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[٥].

هذا هو الدواء والعلاج الذي صاغهُ المجتهد الكبير العلامة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء بـ"كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة".

٣- العوائق، وآليّات تجاوزها:

إنّ ما يعترض رواد الوحدة من صعوبات لا ينحصرُ على جبهةٍ واحدة؛ فالداخلُ الذي يعيشُ حالة الخوف من الآخر، ويعبثُ فيه الكثيرون من مرتزقة الفتن وأصحاب

المآرب والغايات، لا يقلّ خطورةً عن الخارج الذي يكيدُ جهدهُ ويُسخّرُ جندهُ لزرع الوهن في جسد هذا المجتمع، ومن ثمّ نقله إلى ساحة التمزّق والصراعات؛ بحيثُ يسهلُ وضع يده على ما يشاء من ثروات هذا المجتمع.

كلُّ هذه التحديات ينبغي خوضها وتذليلها في سبيل الاستفادة من الرصيد الكبير من القواسم المشتركة بين المذاهب الإسلاميّة، واستيعاب موارد الاختلاف الذي لا يقدح بإسلام أيٍّ من ألوان الطيف في المجتمع المسلم.

ولا بدّ في ذلك كلّه من سعة الأفق الفكري ـبالدرجة الأولىـ، والحرص الشديد على الإسلام والمسلمين؛ تأسياً بنبيّ هذا الدين الذي لم يألُ جهداً في سبيل تأصيل رابطٍ متينٍ بين أبناء هذا المجتمع، حتى عندما ينزع المجتمع ليعيش الجاهليّة في بعضٍ من أفكاره وسلوكياته.

وأمام كُلّ هذا المشهد.. يلوح الحديث المأثور الذي يضع الجميع في دائرة المسؤوليّة؛ إذ أنّ: (كلّ العالَمين هلكى إلا العالِمين، وكلّ العالِمين هلكى إلا العاملين، وكلّ العاملين هلكى إلا المخلصين، وإنّ المخلصين لفي خطرٍ عظيم).

نسأل الله لهذه الأمّة الهداية والرشاد، والوعي الذي تحتاجهُ لتجاوز هذه المحنة الحالكة.

الهوامش:

١- نهج البلاغة، استنهاض الناس، ص : ٦٩ .

٢- النساء / ٥٩ .

٣- الإسراء/ ٩ .

٤- الأنبياء/ ٩٢ .

٥- الأنفال/ ٤٦.